



مجازة الميتافيزيقا: مقارنة منهجية لمفهومي الحقيقة والخطأ

Going beyond Metaphysics: A Methodological Approach to the Concepts of Truth and Error

أ. السنون عبد الفتاح *

¹ جامعة سيدي محمد بن عبد الله، فاس. المغرب، difference1987@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/12/08 تاريخ القبول: 2022/03/25 تاريخ النشر: 2022/03/31

Summary

The concern of this study is to approach the issue of transcendence of metaphysics according to Nietzsche, by clarifying the meaning of transcendence through a systematic approach of the concepts of truth and error, since they are metaphysical values and concepts. The two concepts under study are viewed as self-independent, that is two essences closed in on themselves, and therefore absolutely opposed to each other; however, the genealogical practice will reveal they are not. That is to say, they are not distinct from each other qualitatively, but it is possible to move from one concept to the other, as it is related to the type of criterion adopted in judgment, which is not based on the basis of reason, as explained in the previous article, but on the vital benefit,

الملخص

إن ما يهمنا في هذا المقال هو مقارنة مسألة مجازة الميتافيزيقا عند نيتشه، وذلك بمحاولة تبين معنى المجازة عنده من خلال مقارنة منهجية لمفهومي الحقيقة والخطأ، من حيث هما قيمتين ومفهومين ميتافيزيقيين. فطالما تم النظر إلى هاذين المفهومين باعتبارهما قائمين بذاتيهما، أي باعتبارهما جوهرين منغلقتين على ذاتيهما ومتعارضين بإطلاق، غير أن الممارسة الجينيالوجيا ستكشف بأنهما ليسا كذلك. إنهما ليسا متمايزين عن بعضهما البعض بشكل نوعي وإنما يمكن الانتقال من أحدهما إلى الآخر، لأن الأمر يتعلق بنوع المعيار المعتمد في الحكم، والذي لا يقوم على أساس العقل، كما بينا في المقال السابق، وإنما على النفع الحيوي، الأمر الذي جعل نيتشه، عبر

* أ. السنون عبد الفتاح: difference1987@gmail.com



which made Nietzsche, through his approach Genealogy shows that the values of truth and error, and other values, whether religious, moral, or even scientific, are just prejudices.

Keywords: Genealogy, truth, error, mind, life.

منهجه الجينيالوجي، يبين أن قيمتي الحقيقة والخطأ، ومنه باقي القيم الأخرى، أكانت دينية أو أخلاقية أو حتى علمية، هي مجرد أحكام مسبقة وفقط.

الكلمات المفتاحية: الجينيالوجيا، الحقيقة، الخطأ، العقل، الحياة.

مقدمة:

ارتبط تاريخ الميتافيزيقا الغربية، بل والميتافيزيقا عامة، بالتمييز بين الحقيقة والخطأ، إذ طالما تم تمجيد الحقيقة باعتبارها غاية في ذاتها، أي باعتبارها شيئا يمتلك قيمة في ذاته وليس في حاجة إلى ما يضيفي عليه هذه القيمة. الأمر الذي يمكن معه القول أن تاريخ الفلسفة هو تاريخ البحث عن الحقيقة. غير أن الاعتقاد بوجود حقيقة واحدة وموحدة بين جميع البشر، أي حقيقة كونية ومطلقة أساسها هو العقل، هو ما سيضعه نيتشه على مشرحة النقد الجينيالوجي.

إذا ما كان تاريخ الفلسفة هو تاريخ للعقل، فإن هذا الأمر جعل من العقل مصدر القيمة وأداة تقييم بامتياز، أي اتُّخذ كمعيار للتمييز بين القيم، بين الحقيقة والخطأ، الخير والشر إلخ. غير أن السبب في ذلك، حسب فيلسوفنا، ناتج عن عدم امتلاك جل الفلاسفة "للحس التاريخي" الذي من شأنه أن يساعد في تحديد المنعطفات التي عرفها تاريخ الميتافيزيقا، والتي هي شاهد حي على انخيار الحضارة الهلنستية الخالصة وقيمها. ذلك أن هذه المنعطفات نفسها قد كانت إيذانا بانحطاط الفيزيولوجيا البشرية وباختلاط الأعراق وتهجينها؛ ففي هذه اللحظة بالتحديد تحول معيار الحكم والتقييم من الحياة إلى العقل، فأضحى هذا الأخير المحكمة العليا التي تميز



بين الحقيقة والخطأ، وأصبح سقراط هو الناطق الرسمي باسمه والمحامي المدافع عن أحكامه.

وعلى ذلك، لم يعد الاقتدار الحيوي هو مصدر القيمة والتقييم كما كان عليه الحال مع المفكرين الطبيعيين السابقين على سقراط ومع السوفسطائيين أيضاً، أي مع الهلنيسيين الأقحاح، وإنما حل العقل محلّه، وبذلك لم تعد القيم ذات طبيعة أرضية غايتها الاشادة بكل ما يرتبط بالحياة من رغبة ورقص وموسيقى وقوة وشجاعة، وإنما أمست القيم تجد مبررها في كل ما هو عقلي ميتافيزيقي أو غيبي أخروي وزهدي روحاني. وعلى ذلك فقد تم النظر إلى الحقيقة والخطأ باعتبارهما قيمتين ثابتتين مطلقتين، ولم ينظر إليهما فقط كحكم قيمة يرتبط بفتة وسياقات وشروط معينة. ولعل ما ساهم في تثبيت مثل هذه "الأحكام المسبقة" هو ظهور الديانتين: اليهودية والمسيحية، اللتين وجدتا في حجج سقراط وأفلاطون سنداً نظرياً لتسييد أخلاقها الضعيفة والمنحطة، أخلاق قائمة على الضعف والوهن والتسامح والمساواة.*

إجمالاً، فإننا سنحاول في هذه المقالة مقارنة الاشكالات التالية:

كيف ساهمت الممارسة الجينالوجية في مجازرة ميتافيزيقا الحقيقة والخطأ؟ وهل يمكن اعتبار الحقيقة والخطأ مجرد "أحكام قيمة" وليس كذلك في ذاتيهما؟ وأليس أنه من شأن مثل هذا التصور أن يؤدي إلى غياب معيار للحكم، ليس فقط على المستوى الفلسفي والأخلاقي وإنما أيضاً على المستوى العلمي، مما قد يطوح بنا في نزعة ريبية نسبية تتساوى أمامها كل القيم: الحقيقة والخطأ، الخير والشر، القبح والجمال الخ؟

* - لفهم أعمق لهذه المسألة يمكن العودة إلى مقالنا السابق، والذي يعد مقدمة نظرية لهذا المقال، والموسوم بـ: "الجينالوجيا ومجازرة ميتافيزيقا القيم عند فريدريك نيتشه، مجلة تدفقات فلسفية، المجلد الثاني، العدد 1، 2021.



فرضية البحث: ننطلق في هذا المقال من افتراض مفاده أن الجينيولوجيا هي الأداة المنهجية التي استطاع بواسطتها نيتشه الكشف على الأسس الميتافيزيقية للقيم عامة، ومنه لقيمتي الحقيقة والخطأ، لذلك فإننا سنحاول القيام بتطبيق منهجي عليهما من أجل تبين كيف استطاع مجازرة هذه التصنيفات الميتافيزيقية.

الهدف من البحث: نبتغي من وراء هذه الدراسة الكشف على أن القيم لا تستمد قيمتها من ذاتها وإنما من أولئك الذين يضيفون عليها هذه القيمة، وهي ليست متعارضة بشكل نوعي بقدر ما أن كلا منهما قد يساهم في ولادة الآخر أو في دعمه وإثباته. إنها مسألة منظور فقط.

1. نحو فهم منظوري لقيمتي الحقيقة والخطأ:

إن كان البحث الجينيولوجي كشف عن كون جميع القيم خاضعة لمسألة "المنظور" (نيتشه، 2003، ص 23)، فإن قيمتي الحقيقة والخطأ نفسيهما لا ينفلتان من قبضته، لأنهما يرتبطان بالحياة "والمنظورية هي الشرط الأساسي للحياة". (نيتشه، 2003، ص 18) مما يعني أن الحقيقة ليست قيمة ثابتة بشكل مطلق ولا هي ترتبط بمبدأ عقلي قائم على مطابقة الشيء لذاته، وإنما هي ما يحقق مطلب "النفع الحيوي". (أندلسي، 2006، ص 31) مما يعني أن الحقيقة تتسم "بطابع براغماتي"، ولا يشدّ عن هذا الأمر حتى تلك القيم التي تسمى: "علمية" و"موضوعية"؛ وذلك لأن العلم، في المنظور النيتشوي، ليس سوى تمثيلات، هي في أصلها عبارة عن أخطاء أكثر مما هي حقائق. (أندلسي، 2006، ص 32) إن "النفع الحيوي هو مبدأ كل معرفة وكل قيمة"، إذ أن الحقيقة مساوية للخطأ لأنهما معا مجرد تقييمات ميتافيزيقية عقلية أو متعالية دينية، فالحقيقي من المنظور الجينيولوجي ليس ما هو مطابق لذاته أو لقواعد



مقررة سلفاً، تقررها الفلسفة أو العلم أو الدين أو الأخلاق الخ، وإنما هو ما يساهم في شحذ إرادة الاقتدار الحيوي؛ أي ما ينفع في تحرير الطاقاته الابداعية للحيوان الانساني وفي إنمائها. ومن ثمة قد يكون الخطأ النافع في حسم هذه المعركة المرتبطة بالحياة أهم من الحقيقة المتعالية عليها. الحقيقة ليست كذلك في ذاتها، بل هي مجرد استعارات ومجازات متحولة، وإيجاز شديد هي مجموع العلاقات الانسانية التي تم إعلاؤها وتحميلها شعريا وبلاغيا، استعارات فقدت قوتها الحسية من كثرة الاستعمال حالها كحال العملة النقدية التي تتحول مع مرور الزمن إلى مجرد قطعة معدنية. (Nietzsche, 1969, P 123)

الحقيقة أوهام نسي الناس أنها كذلك لأنها نافعة في معركة الصراع من أجل البقاء، ومنه ليست هناك لا حقيقة في ذاتها ولا خطأ في ذاتها بل هما مسألة منظور فقط، ذلك أن قيمة القيم تتغير بتغير زاوية النظر، وهذا الامر لا ينطبق فقط على المفاهيم الفلسفية أو المثل الأخلاقية وإنما يشمل مجمل القيم بما فيها العلمية.

وعليه، يمكن تصنيف النقد الجينيالوجي من أكثر النقود جذرية، إذ لم يسلم من نقده حتى أعتى دعاة الشك: ديكارت، وذلك لأنه على الرغم من كونه شك في كل شيء إلا انه لم يشك في جدوى الأخلاق. (ديكارت، 1930، ص 81، 80) إذ أنه احتفظ بقيمتي الصدق والكذب، بل ولم يشك في أهم أصنامهم، وهو الله لأنه هو الضامن لكل شيء. ولذلك فهو يؤاخذ عليه، وعلى باقي الفلاسفة إيمانهم الأصلي بتضاد القيم وتعارضها، أي يؤاخذ عليهم تصنيفاتهم الثنائية المنطقية والأخلاقية الميتافيزيقية وكأنها كذلك في الواقع وليست مجرد كيانات عقلية مجردة يتم بناؤها بشكل متعال ومفارق؛ إذ يقول: "إن إيمان الميتافيزيقيين الأصلي هو الإيمان بتضاد القيم. ولم يخطر على بال حتى من كان الأكثر حذرًا من بينهم أن يشك في الأمر وهو ما زال



على العتبة، هناك حيث كان بأمس الحاجة إلى الشك، وذلك حتى لو أقسم بأن "يشك في كل شيء". يجوز للمرء حقا أن يشك أولا في ما إذا كان ثمة من أضداد على الإطلاق. (نيتشه، 2003، ص 23) مما يعني أنه ليس هناك أي تضاد أصلي بين القيم، بين الحقيقة والخطأ وبين الصدق والكذب. فالأضداد ليست كذلك في ذاتها وإنما هي من تحت العقل المفارق، ولذلك فهو يُسائل الميتافيزيقيين بصيغة استنكارية "كيف يمكن لشيء أن يتولد عن ضده؟ وعلى سبيل المثال، أن تتولد الحقيقة عن الضلال، أو إرادة الحقيقة عن إرادة الخداع، أو الفعل الغيري عن المصلحة الذاتية، أو نظر الحكيم النير الخالص عن الشهوة؟" (نيتشه، 2003، ص: 22) ثم يجب أن الميتافيزيقيين يرون أنه "للأشياء ذات القيمة الأسمى منبعا آخر وخاص؛ فهي لا يمكن أن تُشتق من هذه الدنيا الفانية الغاوية الخادعة الوضيعة [...] لا ! إن منبعها يجب أن يكمن هناك، في حضن "الكون"، في اللا-فاني، في الإله المخفي، في الشيء في- ذاته." (نيتشه، 2003، ص 22) وهكذا يتبين أن نيتشه لا يعتقد في وجود تضاد أصلي بين المفاهيم أو القيم، فهذا الاعتقاد في وجود تضاد أصلي بينها هو ما نسميه ميتافيزيقا، لأنه ليس من طبيعة الأشياء وإنما هو من طبيعة عقلية مجردة أو غيبية أخرى. لذلك فهو يعتبرها مجرد أحكام مسبقة، إذ يقول أن "هذا النوع من الأحكام التحكيمية المميّزة تجعلنا نتعرف إلى الميتافيزيقيين في الأزمنة جميعها، ويحتل هذا النوع من التقييمات خلفيّة تدابيرهم المنطقية كلها." (نيتشه، 2003، ص 22) ومن هنا يتبين أن الرجل ينظر إلى الإلزامات المنطقية لدى مجمل الميتافيزيقيين كالإلزامات أخلاقية أيضا، لإضفاء طابع الصدق والقدسية عليها.



لقد عمل الميتافيزيقيون على خلق عالم ما وراء الطبيعة وجعلوه أساس الحقيقة ومصدرها، وأوجدوا عالماً ثابتاً يتجلى في العالم اللا-فاني، عالم الله وعالم الشيء في-ذاته، أي في عالم الحقيقة الخالدة؛ غير أن نيتشه يرى على العكس من ذلك أن كل هذه التقييمات هي "مجرد تخمينات سطحية" للفلاسفة، إذ أن الحقيقة لا تقوم على مطابقة الشيء لذاته لأنها لا تستمد حقيقتها من قيمتها العقلية وإنما من قدرتها على حفظ الحياة وإنمائها، ولذلك فهو يضيف: «إن خطأ حكم ما لا يشكل عندنا مأخذاً على الحكم. ولعل هذا من الأمور الأغرب وقعا على السمع في لغتنا الجديدة. فالمسألة هي بالأحرى: إلى أي مدى يكون [الحكم] منمياً للحياة، محافظاً على النوع، بل ربما محسناً للنوع؟ ونحن نميل مبدئياً إلى الزعم بأن أكثر الأحكام خطأ (ومن بينها الأحكام التأليفية القبلية) هي الأكثر لزوماً لنا.» (نيتشه، 2003، ص 24، 25)

هكذا فإن "فيلسوف المطرقة" لا يعتقد في وجود تناقض أصلي من طبيعة الأشياء بل هو منطقي بين المفاهيم والكيانات المجردة. لكن الواقع يكشف، وليس العقل الميتافيزيقي، أنه توجد هناك إمكانية للانتقال أو الحركة بين الأضداد. فالعلاقة بينها لا تقاس على أساس عقلي ولا أخلاقي أو قيمتي متعالي، وإنما على أساس حيوي. وبذلك فقد ساعد على تأسيس فلسفة "مفتوحة غير نسقية تتوجه نحو الغيرية، الحاشية، الجنون، اللاوعي، الخطأ، التنوع، التعدد والاختلاف الذي كان من أهم المسائل المستبعدة في الفكر النسقي المغلق." (منصور، 2021، ص 144)

وعليه، فإذا كان سقراط يجسد صورة فيلسوف العقل، فإن نيتشه يجسد صورة فيلسوف الحياة، ولحياة ليست مقولة أو مفهوماً ولا مبدءاً أخلاقياً ولا يمكن سجنها في مقولات ومفاهيم فلسفية عقلية مغلقة أو في قيمة ما ذات نزوع أخلاقي متعالي، بل



هي تجربة مفتوحة ولا تتأسس على أية مبادئ أو أسباب أولى ولا على أية حقائق مطلقة. ولذلك فهو يرتدّ على تاريخ الفلسفة من سقراط إلى هيجل، لأن هذا التاريخ هو تاريخ العقل الميتافيزيقي، تاريخ اللوغوس القائم على حجائية الخطاب وتماسكه المنطقي والعقلي وليس على اللاحقيقة أو الخطأ. والخطأ هنا قد يفهم بالمعنيين معا: المعرفي والاخلاقي معا. ويمكننا أن نجد ما يبرر هذا القول من خلال تأكيد الرجل بأن سبب فشل كل ما بناه الفلاسفة منذ أفلاطون هو أن الفلاسفة كلهم "قد شيدوا صروحهم تحت إغراء الأخلاق، كانط والفلاسفة الآخرين، وبأنهم يتظاهرون بالاهتمام باليقين، بـ "الحقيقة"، بينما اهتمامهم الحقيقي كان منصبا على صروح أخلاقية شامخة." (نيتشه، 2011، ص 8، 9) مما يعني ان الرجل لا يميز بين الأخلاق والمعرفة بل ويعتقد في إمكانية رد الحقيقة إلى الاخلاق. أي أن تاريخ الفلسفة بما هو تاريخ للعقل، ومنه تاريخ للحقيقة، ما هو في حقيقته إلا تاريخ للأخلاق.

ليس العقل إذن، إلا أداة سلب ونفي صيرورة الواقع وتدفق الحياة، لذلك يجب التضحية به، إذ يقول: «الاستجابة الإثباتية للحياة في إشكالاتها الأكثر غرابة وحِدّة، إرادة الحياة مع التضحية بأرقى نماذج مكوّنات الثراء الذاتي الذي لا يُستنفذ، ذلك هو ما سمّيته ديونيزي، وذلك هو ما اعتبرته معيارا إلى سيكولوجية الانسان التراجيدي، لا من اجل التخلص من الرعب والشفقة (...) بل لكي يتمكن، فيما وراء الرعب والشفقة، من أن يغدو التجسيد الحي للمتعة الخالدة، للصيرورة ذاتها، تلك التي تحمل في ذاتها متعة التدمير أيضا.» (نيتشه، 2006، ص 83) ومن ثمة يبدو أن المبادئ المثالية التي يصنعها العقل ويحاول فرضها على الحياة بشكل قبلي هي في الحقيقة تعبر عن محاولة لتحنيط الواقع والحياة في قوالب جامدة تتخذ شكل أصنام وأوثان



ومومياوات. لذلك فإن صاحبنا وقف ضد العقل، ليس أي عقل وإنما ضد العقل الميتافيزيقي، أي العقل المغلق صانع الحقائق والمقصي للخطأ، أو العقل المحكم أو المحكمة، معتبرا إياه "صنم الفلاسفة الأكبر"، لأنهم "آمنوا بقدرته على اكتشاف الحقيقة والوجود، وجعلوه الحاكم المطلق، والحكم الذي لا مردّ لحكمه ولا معقب لقضائه، وحسبوا قوانينه قوانين الوجود، ومبادئ الفكر حقائق مستخلصة من طبيعة الوجود ذاته، وتعبّر حقيقة عن علاقات واقعية كائنة بين الأشياء الموجودة." (بدوي، 1975، ص 202) غير أن نيتشه دائما ما حاول، اعتمادا على منهجه الجينولوجي، أن يقوض هذه الأوثان الميتافيزيقية لأنها تحتط الوجود الانساني في مقولات جامدة قائمة على تصنيفات قيمية أخلاقية ثنائية يغيب عنها بعد الحركة والشبقية والرقص والمرح، حيث يؤكد "ما يسمى على صفحة العنوان أصناما إنما هي كل ما ظل يسمى حقيقة إلى حد ذلك الحين، أفول الأصنام تعني بعبارة أوضح: إنها نهاية كل الحقائق القديمة." (نيتشه، 2006، ص 131) وبهذه الجملة الجريئة والمقتضبة يعلن بأن ما يعتبره الفلاسفة حقائق هي مجرد مفاهيم عقلية تم تصنيفها، أي تم تحويلها إلى أشياء معبودة أو آلهة مقدسة، لذلك فإن منهجه في التفلسف يقوم أولا على الإعلان عن أفول الأصنام، أي أفول القيم والمثل العقلية المتعالية، ومنها الحقيقة والخطأ، التي يُشاع بأنها كذلك في ذاتها ويعملون بالعقل المتأمل المفارق على إثبات جدارتها ضدا على قيم الحياة السائلة؛ إلا أن فلسفة نيتشه لا تكثرث للقيم والمثل المتعالية السائدة، فهذه الأخيرة لا تروقها لأنها قيم متكررة ومخادعة وظيفتها قتل الحياة والحرية والجمال والارادة. إنها دوما ما تعمل على إملاء المعايير والشروط على الانسان، لتستنبت في داخله كائنا ضعيفا وظيفته احتقار ذاته، والانتقاص من قدراته المبدعة، وتجعل منه حيوانا مدجّنا وضعيفا إلى



جانب أنه مطواع. فهي تعمل على قتل قيم الإبداع والخلق والمبادرة. إن المثل بمجملها ما هي إلا أعباء يجب التخلص منها، وبذلك فإن الجينياولوجيا في جوهرها نقد للأخلاق والدين والميتافيزيقا. "(مفرج، 2003، ص 63)

2. من منظورية الجينياولوجيا إلى استعادة وخلق قيم جديدة

إذا ما كان المنهج الجينياولوجي أثبت منظورية القيم ونسبيتها، إذ أنه كشف عن أن القيم ليست أشياء في ذاتها ولا هي غايات في ذاتها وإنما هي مجرد وسائل لتحقيق ما وُجدت من أجله ألا وهو الحفاظ على الحياة وإنماء طاقاتها، فإن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد السلبي القائم على الكشف والتفكيك والنقد، بل هو يتغى من وراء ذلك هدم كل هذه القيم - الأوثان، ومنها قيمتي الحقيقة والخطأ، ثم إعادة بناء قيم جديدة أو بالأحرى استعادتها بعدما تم نسيانها، وذلك من خلال استعادة الثقافة الآرية التي سبقت عهد سقراط "القبيح"، "سقراط [الذي] كان من الرعاع." (نيتشه، 2010، ص 26) أي من الطبقة العامة المهجينة والمختلطة النّسب مما جعله يؤسس لأخلاق وقيم قبيحة، هجينة، ضعيفة ومنحطة؛ "غير أن القبح، الذي هو مأخذ في حد ذاته، يعتبر لدى الإغريق أمرا قريبا من الاعتراض [...] فالقبح غالبا ما يكون تعبيرا عن طبيعة مختلطة، عن تطور معاق بالاختلاط. وفي حالات أخرى يظهر كتطور انحداري." (نيتشه، 2010، ص 26) يجب العودة إذن إلى القيم الوثنية الأرستقراطية التي انبنت على فضائل القوة والنبل والتميز والمرح، ولم تكثرث للقيم في صورتها الميتافيزيقية. فهؤلاء الأرستقراط كانوا هم منبع قيمهم، هم الذين يحكمون علي أفعالهم بالحقيقة والخطأ أو بالخير أو الشر انطلاقا من مصلحتهم الخاصة، ألم يقل نيتشه: إن الحكم "خير" لم يصدر عن أولئك الذين تمت معاملتهم بشكل خيّر، بل "الخيرون" هم



الرجال المتميزون، الأقوياء؛ المتميزون الذين جعلهم وضعهم وسمو روحهم يعتبرون أنفسهم "خيرين"، يعني من المستوى الأول، في مقابل كل ما هو سافل ودنيء وعامي وشعبي. (Nietzsche, 1995, p 17) ليست الحقيقة والخطأ من المنظور النيتشوي سوى اصطلاحات ومفاهيم عقلية خالصة ليس لها أي أساس واقعي، إذ ما هي إلا نتيجة لـ "الأخلاق السقراطية"، لـ "موت التراجيديا". إنها نتاج لظهور "الجدل، هدوء الانسان التجريدي وقلة متطلباته". (نيتشه، 2011، ص 128) وبذلك تكون هذه الأخلاق السقراطية التي اصطنعت قيمتي الحقيقة والخطأ والخير والشر إلخ، "علامة انخراط الغرائز، واستنزافها، ومرضها، وتحللها الفوضوي؟ وهل يكون "الهدوء اليوناني" لدى الإغريق المتأخرين عبارة عن حمرة الشفق الأحمر؟" (نيتشه، 2011، ص 128) نجب عوض نيتشه: بنعم، لأن الحقيقة قبل سقراط كانت تقوم على الاقتدار الحيوي وليس على العقل، كانت تقوم على فضائل الجسد ومشتقاته، من قبيل إرادة القوة والحرب والتدمير والرفض ... بدل فضيلة العقل المتمثلة في الميل إلى السكون والجدل. وعليه، فإن قيمة القيم ليست ثابتة بل هي متغيرة بتغير الظروف والسياقات، والحقيقة والخطأ والصدق والكذب إلخ، هي قيم تتغير بتغير الظروف والمصالح حالها كحال العملة النقدية التي تتغير قيمتها بتغير الزمان والمكان والظروف، بحيث تصبح مع مرور الوقت مجرد قطعة معدنية لا قطعة نقدية. (Nietzsche, 1969, P 123) ومنه فإن، القيمة ليست شيئا جوهريا أو ماهية ثابتة بل هي نتاج مفعولات قوى تتشابك في مستويات وسطوح مختلفة. إنها ما ينحته صاحب إرادة القوة، أي من يملك القدرة على الخلق والابداع، ومنه فنيته يعتبر أن الحقيقة ليست معطى جاهزا أو جوهرا يوجد هناك فقط يجب الكشف عنه أو تأويله بل هو ما يبدعه الانسان ويخلقه



بذاته. (schmid,1992, p 58) إن من يملك الارادة والقدرة على الفعل، أي الرجل النبيل، السيد، هو من يضفي على قيمه صفة الحقيقة؛ لكن الحقائق بالنسبة إلى العبيد السود هي ما يوجد هناك، في العالم الماورائي، فقط ينبغي الكشف عنها. وحتى إذا ما كان لا بد لها أن تولد فهي دائما وأبدا في حاجة إلى عالم خارجي عدائي؛ وحتى نتكلم فيزيولوجيا، بلغة طبيب الحضارة: هي في حاجة إلى محفزات خارجية، لأن فعلها ناتج عن رد الفعل. (Nietzsche,1995, p 28)

تقوم قيم الحقيقة إذن، القيم التي يجب إعادة خلقها في عالم يعيش احتضاره الأخير، على قيم التميز والنبيل والتفرد والحياة والتمرد. أي على قيم تدعوا إلى الحرب لأن "العدول عن الحرب هو رفض لعظمة الحياة." (نيتشه، 1996، ص 33) في حين تقوم قيم رد الفعل على الزهد والعفة والمحبة والأخوة والتواضع إلخ، أي على القيم اليهود-مسيحية التي جاءت بها الأديان السماوية التوحيدية من جهة، وتلك التي حملتها الفلسفة ما بعد -السقراطية من جهة ثانية. (دولوز، 1993، ص: 33) ذلك أن المعركة، مع انهيار الحضارة الهلينية، تحولت من صراع مادي واقعي متصل بالحياة والقوة والشجاعة وغيرة التدمير إلى صراع رمزي عقلي حجاجي بل وأخروي غيبي، أي أن الحقيقة أصبحت شيئا عقليا يقوم على الحجة بعد ان كانت تقوم على القوة، أي على ما ينفع في الحياة، إذ لم تعد الحياة هي قيمة القيم ومعياريها الأسمى وإنما حل محلها العقل أو الروح. لكن ما يرغب الفيلسوف في إبداعه أو إحيائه هي القيم التي تشيد بفضيلة الحواس والقوة والشجاعة والحرب، إذ يقول: "لقد شعرت للمرة الأولى أن أقوى وأسمى إرادة للحياة لا تجد تعبيرا لها في الصراع البائس من أجل البقاء، ولكن في إرادة الحرب، إرادة القوة، إرادة السيادة!" (ديورانت، 2004، ص 312) مما يعني أن الحياة



تجد تعبيرها الأمثل في الحرب لا في السلم، والحرب في كُنْهها لا تتعارض مع الحياة بل هي ما يحافظ عليها ويحتفي بها. تحتاج الحياة إذن للاستمرار في الوجود إلى إرادة القوة وليس إلى قيم الزهد والتنسك والروحنة التي تؤدي إلى التذني والانحطاط، فالحياة ليست دعوة لممارسة أفعال الخير والعدل والتسامح، بل "ما نحتاج إليه - كما يقول ول ديورانت- في هذه المعركة المسماة بالحياة هو القوة لا الطيبة والكبرياء لا الخضوع". (ديورانت، 2004، ص 309)

لقد تميزت الفلسفة الميتافيزيقية بتبشيرها بقيم الحقيقة والصدق والصواب القائمة على أساس العقل الجدلي، وهي القيم التي سيتم دعمها مع ظهور الأديان السماوية عامة واليهودية والمسيحية خاصة، وهذه المسألة هي التي يوضحها من خلال نقده للفلسفة "الدوغمائية"، التي شيدت عمارات ميتافيزيقية على الطراز المعماري القديم في آسيا ومصر، لكونها وضعت الأسس الأولى للمسيحية كما يتجلى ذلك في الفلسفة الأفلاطونية التي اخترعت "الروح المحض والخير في ذاته"، بل ويضيف أن "المسيحية هي أفلاطونية مخصصة للشعب". (نيتشه، 2003، ص 19) وبذلك فقد توافقت فلسفة ما بعد-سقراط مع اللاهوت، مما أسهم في اصطناع تقليد ميتافيزيقي مريض ومنحط قوامه احتقار الجسد والإعلاء من قيمة العقل والروح والإله، وبهذا تركز الإنسان حول اللوغوس والحقيقة ثم الإله. (دريدا، 2000، ص 26) ومن ثمة فإن الفيلسوف يعتبر تاريخ الفلسفة، الذي هو تاريخ الأفلاطونية، علامة على وهن ومرض الإنسان الغربي، لذلك فإنه يأمل في "شفاء أوروبا من مرض أفلاطون". (Badiou, 1992, P 64) أي من العقل، فكانت فلسفته استئنفا للفلسفة الشعرية السابقة على سقراط، أو هي بالأحرى على حد تعبير ألان باديو: "انتقام من أفلاطون". (Badiou, 1989, p)



50) الذي طرد الشعر خارج المدينة لأنه حسي حيوي يقوم على المحاكاة وليس على الفكرة أو المثال، ذلك أن فلسفة أفلاطون تقوم على الفكرة أو المثال الذي يتعارض مع المجاز والاستعارة الشعرية الحسية.

هكذا أصبح الإنسان مع ظهور الأديان التوحيدية منشطاً على ذاته، يتميز فيه الروح، أو العقل الذي يرمز إلى الحقيقة، عن الجسد، الذي يرمز إلى الخطيئة. "أصبح الإنسان - يقول غانم هنا - جرحاً مؤلماً فيه جزء يعيش وآخر يفكر (...)" قسم يأمر وآخر يطيع. "هنا، 2007، ص 40) ومن ثمة، فإن المسيحية قد عمقت جراح الإنسان فجعلت الفرد ذاته يعيش صراعاً مع ذاته، نظرت إليه من حيث هو مركب من أجزاء متعارضة يمكن التمييز فيما بينها، ولم تنظر إليه من حيث هو وحدة متكاملة، يتكامل فيها العقل مع الجسد، والحقيقة مع الخطأ، أو على الأقل نظرت إلى الجسد باعتباره تابعاً للروح بيد أن نيتشه يرى أن العقل هو الذي يدعم ويساند الجسد، أي أنه عمل على قلب الطرح الأفلاطوني - المسيحي. ولما كان المشروع الفلسفي السقراطي - الأفلاطوني يتوافق، في خطوطه العريضة، مع المشروع اليهودي - المسيحي، فإن المشروع الفلسفي النيتشوي قام بالقلب الجذري لهذا البراديغم، كما يؤكد ذلك الأستاذ السيد ولد أباه في قوله: "إن جذرية المشروع النيتشوي تكمن إذن في "القلب" الكامل لهذا التوجه الأفلاطوني الذي حكم تاريخ الفلسفة منذ بدايته." (ولد أباه، 1994، ص 50) وإذا ما كان أهم ما ميز الفلسفة السقراطية بشكل خاص، والفلسفة الغربية بشكل عام، هو هذا النزوع الأخلاقي الذي ساهم في تثبيت قيمتي الحقيقة والخطأ والخير والشر الخ، فإن ذلك ما جعل نيتشه ينادي بنزعة أخلاقية مضادة، أي بنزعة حيوية تجعل من الحياة والقوة والغريزة أساس كل قيمة. ولذلك يقول: «أليست الأخلاق نفسها "نفياً



للحياة"، وغريزة خفية هدفها الإفناء، أليست هي مبدأ الانحطاط، والانتقاص من قيمة الإنسان، والافتراء عليه، وبداية النهاية؟ وبالتالي فهي أكبر الأخطار؟ ... لهذا انقلبت غريزتي في هذا الكتاب الاشكالي ضد الأخلاق، وهي غريزة تنافح عن الحياة بابتكارها مبدئياً عقيدة مناقضة للمسيحية، وتقييماً فنيا محضاً للحياة ومناقضاً للمسيحية هو كذلك. فكيف أسميه؟ بصفتي فقيه لغة ولغويا اشتقت له اسماً من إسم إله إغريقي، بعد حصولي على ترخيص ما - فمن ذا الذي يعرف الاسم الحقيقي للمسيح الدجال؟ - أسميته الديونيزي.» (نيتشه، 2011، ص 134) وعلى ذلك فإن الممارسة المنهجية للجينالوجيا تقودنا إلى ما وراء القيم، ومنه إلى ما وراء الحقيقة والخطأ، وما يوجد وراءها ليست الميتافيزيقا في صورتها العقلية الجدلية ولا في صورتها الأخلاقية أو الدينية، وإنما صورتها الحيوية. الحياة هي مصدر ومعيار كل قيمة وليس هناك ما يمكن أن يكون معياراً لها، إنها المعيار المحايث لذاتها ولباقى القيم الأخرى.

وإجمالاً، يمكن القول بأن جينالوجيا نيتشه ساهمت في إقامة خطاب فلسفي منظوري، يؤكد على منظورية كل القيم، ومنه منظورية الحقيقة والخطأ. فهتتين القيمتين ليستا مطلقتان وإنما خاضعان لزاوية نظر ما، وبذلك تكون كل القيم نسبية. فليست الحقيقة متميزة من حيث جوهرها عن الخطأ، إذ يمكن لأحدهما يتحول إلى الآخر أو ينتج عنه بل ودعّمه أحياناً، لأن ما نسميه حقيقة أو خطأ ما هو في أساسه إلا وليد عوامل أربع، وهي: المنفعة، النسيان، العادة و الخطأ. (نيتشه، 2010، ص 45)

استنتاجات:

نخلص مما سبق أن ناقشناه إلى العناصر التالية:



- أن أهمية جينيالوجيا نيتشه تكمن في مجازرة التصنيفات الميتافيزيقية القائمة على الاعتقاد في وجود قيم في ذاتها. ومنه فقيمتي الحقيقة والخطأ هما مجرد أحكام مسبقة، فهما لا يختلفان عن بعضهما بشكل جوهري ولا بشكل نوعي، لذلك يمكن لأحدهما أن يتناسل عن الآخر؛
- أن التأكيد على نسبية الحقيقة والخطأ لا يعني أن الجينيالوجيا هي فقط فلسفة نافية، بل هي على العكس من ذلك هي إثباتية أيضا، إذ أن الأمر لا يتعلق بابتداع مذهب ربي جديد بقدر ما يتعلق بتغيير معيار الحكم، من العقل إلى النفع الحيوي؛
- أن القول بنسبية الحقيقة والخطأ لا يعني في نهاية المطاف القول بغياهما، وإنما يعني فقط أنهما خاضعان لمسألة المنظور. ولما كان هذا الأخير متغير بتغير مواقع الناظر كانت الحقائق والأخطاء بدورها متغيرة. وهو الأمر الذي ينطبق على نيتشه نفسه، بحيث انتقل في تقييمه للقيم من العقل الجدلي السقراطي إلى معيار النفع الحيوي، الذي يتجسد فيما سماه ب: "الانسان الأعلى".

خاتمة:

إجمالا، فإن تاريخ الميتافيزيقا الغربية، من المنظور النيتشوي، هو تاريخ إرادة الحقيقة. وذلك لأن الفلسفة، من سقراط إلى هيغل، انبنت على الاعتقاد في وجود حقيقة وخطأ في ذاتهما، وأن العلاقة بينهما هي علاقة تناقض جوهري ونوعي لا يمكن تجاوزه. غير أن صاحبنا يتجاوز ذلك، إذ يعتبرهما مسألة تصنيفات عقلية منطقية من جهة، وأخلاقية دينية من جهة ثانية. وبذلك فقد سخر عدته المنهجية الجينيالوجية من أجل تفكيك السلم القيمي القائم الذي ورثته الفلسفة الغربية عن تاريخها الطويل، ومنه



تفكيك قيمتي الحقيقة والخطأ، وذلك بهدم معياري العقل والأخلاق الميتافيزيقيين الذي على أساسهما يتم التمييز بين الحقيقة والخطأ، ومن ثمة لم تعد الحقيقة هي مطابقة الشيء لذاته ولا مطابقة التصور أو المفهوم للواقعة، وإنما هي ما يحقق النفع الحيوي. وبالتالي لن تكون هناك حقيقة في ذاتها ولا خطأ في ذاته بل هما متداخلان فيما بينهما، إذ يمكن الانزياح من أحدهما إلى الآخر ما دام أنهما ليسا غايتين في ذاتيهما بل النفع الحيوي هو الغاية في ذلك.

قائمة المراجع:

- أندلسي، م. (2006). نيتشه وسياسة الفلسفة. ط1. المغرب: دار توبقال للنشر.
- بدوي، ع. ر. (1975). نيتشه. ط5. الكويت: وكالة المطبوعات.
- دريدا، ج. (2000). الكتابة والاختلاف. ترجمة: كاظم جهاد. المغرب: دار توبقال للنشر.
- دولوز، ج. (1993). نيتشه والفلسفة. ترجمة: أسامة الحاج. ط1. لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.
- ديكارت، ر. (1930). مقال عن المنهج. ترجمة: محمود مُجَّد الخضير. مصر: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.
- ديورانت، و. (2004). قصة الفلسفة من أفلاطون إلى جون ديوي. ترجمة: المشعشع فتح الله، ط1. لبنان: منشورات مكتبة المعارف.
- مفرج، ج. (2003). نيتشه الفيلسوف الثائر. المغرب: إفريقيا الشرق.
- منصور، ر. (2021). الاختلاف عند دولوز، مجلة تدفقات فلسفية، المجلد 2، العدد 01، ص ص: 143-168. مركز المدار المعرفي للأبحاث والدراسات، الجزائر.
- نيتشه، ف. (1996). أفول الأصنام. ترجمة: حسان بوقرية ومُجَّد الناجي. ط1. المغرب: إفريقيا الشرق.



- نيتشه، ف. (2003). ما وراء الخير والشر. ترجمة: جزيلا فالور حجار. مراجعة: موسى وهبة. ط1. لبنان: دار الفارابي .
- نيتشه، ف. (2006). هذا هو الانسان. ترجمة: علي مصباح. ط2. لبنان: منشورات الجمل.
- نيتشه، ف. (2010). في جينالوجيا الأخلاق. تر: فتحي المسكيني. مراجعة: محمد محبوب. ط1. تونس: منشورات دار سيناترا.
- نيتشه، ف. (2011). ميلاد التراجيديا. ترجمة: محمد الناجي، المغرب: إفريقيا الشرق.
- هنا، غ. (2007). مفهوم الحرب بين نيتشه وهيدغر. مجلة عالم الفكر. المجلد 36. العدد 2. ص ص: 37-76. الكويت.
- ولد أباه، أ. (1994). التاريخ والحقيقة لدى ميشيل فوكو. ط1. لبنان: دار المنتخب العربي للنشر والتوزيع.

- Badiou, A. (1989). **Manifeste pour la philosophie**. France: Seuil.
- Badiou, A. (1992). **Conditions**. France: Seuil.
- Nietzsche, F. (1969). **Le livre du philosophe**. traduction et présentation d'Agéle Kremer-Marietti. bibliographie mise a jour (2014) par Laurent Giassi. France: Flammarion.
- Nietzsche, F. (1995). **La Généalogie de la morale**. trad. Henri Albert. Tunis: Cérès Éditions.
- Wilhelm, S. (1992). **La philosophie comme art de vivre**. Magazine littéraire. N° 298. France